أسرة بيتهوفن

— لقد كان جدى جندياً . أليس كذلك يا أماه ؟

بهذا السؤال توجه طفل فى الرابعة من عمره إلى أمه بعد أن أدار بأصرتيه فى صورة زيتية معلقة فى الجدار ، صورة لرجل ممتلىء الجسم يرتدى سترة حمراء ذات دائر ذهبى ، ويلبس قبعة مدلاة إلى الجانب .

لودفيج فان بيتهوفن جد « بيتهوفن »

قالت أمه :

— كلا يا بنى . لم يكن جدك جنديا ، بل كان موسيقياً فى بلاط الأمير ، شأن أبيك اليوم . وهذا الزى الذى ترى هو اللباس الرسمى لفرقة ذلك الأمير .

— وهل كان يحبنى يا أماه ؟

— غاية الحب يا ولدى ، حتى لقد كان يحضر لزيارتنا كل يوم ، لا لشىء إلا ليراك . كان يقبلك كثيراً ، ويتفكه معك كثيراً .

هنا بدأت ترتسم فى أفق ذاكرة الطفل صورة خفيفة من ذكريات قديمة ، فعاد إلى الصورة يحملق فيها بعينيه المتوقدتين كأنما يريد أن يتذكر شيئاً .

لقد مات هذا الجد لبضعة شهور خلت حسبها الطفل سنين وأعواماً ، وهو لم ير جده منذ أمد بعيد .

سار الطفل بضع خطوات متجهاً نحو النافذة ، وأخذ يطل منها إلى الخارج ، وهو دائب التفكير فى جده ، ثم استأنف الحديث مع والدته فقال :

— وهل كان اسمه بيتهوفن أيضا ؟

— بالطبع . فهذا لقب العائلة .

— وما اسمه هو إذن ؟

— اسمه لودفيج (Ludwig)

— وهل سمى لودفيج لأن اسمى أنا لودفيج ؟

أفتر ثغر الأم عن ابتسامة رقيقة . وكان الابتسام نادراً فى حياتها — فهى مخلوق حزين ، شاحب اللون — تلازم وجهها كآبة دائمة . ثم ترفقت فى تعليم ولدها قائلة :

— على العكس يا ولدى . فقد تسميت أنت باسمه .

واستمر الطفل فى تفكيره وهو يطل من النافذة ، وإذا به ينتقل فيه إلى ناحية أخرى فيسائل والدته :

— وهل ماتت جدتى ؟

انقبضت أسارير الأم وكادت تجيبه بنعم ، لولا أنها لم تتعود فى حياتها إلا قول الصدق فأجابته :

— كلا يا بنى ، إن جدتك لا تزال على قيد الحياة .

— إذن لماذا لا تحضر لزيارتى ، وتتنادر معى كجدى ؟ هل هى لا تحبنى ؟

— إنها مريضة .

— ألا أستطيع أن أزورها أنا ؟

— إن أردت ذلك ، كان عليك أن تقطع فى السفر إليها مرحلة طويلة ، إنها ليست هنا فى مدينة « بون » .

سمع وقع خطى فى الردهة الخارجة . فقالت الأم لطفلها فى صوت خافت : لقد أقبل والدك .

فتح البـــاب ، ودخل « يوهان فان بيتهوفن Johann van Beethoven » ، وكان رجلا طويل القامة ضخم الجسم فى منتصف العقد الرابع ، وقد أمسك فى يده نوتة موسيقية .

استقبلته الزوجة وولدها بعينين وجلتين حائرتين ، ذلك بأنهما قد تعودا دخوله البيت صاخبا ، مرعدا ، مهددا ، متوعدا ، متلافا لكل ما يصادفه فى طريقه من أدوات البيت ، لأنه كان مدمن خمر ، ومسرفا فى شربها . ثم هو لا يجد بعد ذلك من يفرغ فيه جعبة غضبه ، ولا

من يسلط عليه نقمة ثورته إلا زوجته المسكينة ، وطفله الصغير .

تنفست الزوجة الصعداء عند ما لاحظت هدوء حاله فى هذه المرة وسكونه على غير عادته .

أما الطفل ، وقد تعود منذ نشأته ألا يجد فى هذا الرجل إلا أداة إزعاج ، وخوف ، وفزع ، فإنه — برغم هذا الهدوء والسكون ذلك اليوم — تسلل خفية من الحجرة هاربا إلى فناء البيت دون أن يشعر به أحد .

خلع « يوهان » قبعته ، واستبدل ملابسه ، ثم أقبل على آلة البيانو ، وكانت هى القطعة الوحيدة القيمة الباقية من أثاث البيت ، فوضع عليها ورقة النوتة التى كانت بيده ، وأخذ فى توقيعها ، وكانت قطعة غنائية للموسيقار « جوزيف هايدن Joseph Haydn » .

استمر « يوهان » فى غناء تلك المقطوعة يتابعها بالعزف بالبيانو رغبة فى دراستها دراسة دقيقة .

أما الزوجة « ماريا مجداليا Maria Magdalena » فقد أخذت مكانها عند إحدى نافذتى الغرفة ، تكاد تنم ملامح وجهها عما هى فيه من بؤس ، وشقاء ، وتنطق بما ينتابها من هم ونكد .

بل إن عينيها لتكاد تعبران عن هذا البؤس ، وتترجمان عما يجول فى خاطرها من تفكيرها فى أعباء الحياة . تلك الأعباء الثقيلة الملقاة على عاتقها . لذلك كانت منصرفة عن توقيع الموسيقى ، مشغولة عن سماع أصواتها .

وبقدر ما كان انصراف الزوجة عن سماع تلك الموسيقى كانت هناك أذن مرهفة لسماعها ، مأخوذة بها ، شديدة الإنصات لها ، تلك هى أذن الطفل « لودفيج » الصغير الذى استولت عليه الموسيقى فتغلب سحرها على خوفه من أبيه وغطى أثرها على فزعه منه فدخل الغرفة دون أن يشعر به والده ، ووقف يستمع فى صمت وسكون .

نعم لقد سمع الطفل أنغام الموسيقى وهو فى فناء البيت يلعب مع أقرانه ، فملكت عليه حواسه وتسلطت على مشاعره فجذبته إليها ، وساقته إلى مصدرها ، بعد أن بدلت خوفه أمنا ، وفزعه طمأنينة

لم يتنبه الوالد إلى ولده ، بادئ الأمر ، ولكن بعد هنيهة التفت إلى وجود الطفل فى الغرفة ، وكان قد انتهى من الأداء فتلطف وقال له :

— أيها الغلام ! أقرأ فى عينيك رغبة شديدة فى أن تشترك معى مرة أخرى فى أداء هذه المقطوعة .

طفح وجه الغلام بالبشر وظهرت عليه علائم الفرح والابتهاج ، وأقبل على والده وقد نسى غلظته ، وقسوته ، فجلس فى حجره حيث أمسك الوالد بيد الطفل وأخذ يقود أصابعه على مفاتيح البيانو عازفا تلك القطعة ، وقد أخذ يصاحبها بالغناء .

انتهى الأداء ، فصفق الطفل بيديه استحسانا ، وقد فاض قلبه بالفرح والسرور ، وأخذ يتوسل إلى والده قائلا :

— مرة أخرى يا أبى ، إنى أرجوك الإعادة ، واستمر الغلام فى

إلحاحه حتى استجاب له والده ، ونزل على رغبته . فأعاد القطعة من بدايتها .

وتكرر هذا عدة مرات حتى ضاق الوالد بالغلام ذرعا ، وبموسيقيته الملحة التى لا تجد لنهمتها الفنية شبعا .

يوهان فان بيتهوفن والد « بيتهوفن »

أما الزوجة وكانت منكبة على رتق جورب ، فقد سقط هذا الجورب من يدها ، حين صوبت عينيها فى حنان إلى طفلها تلاحظ أصابعه الصغيرة يقودها الوالد على البيانو . ولا ريب أن شعور الإعجاب كان قد استولى عليها فهى لا شك تلمس فى ولدها استعداده الموسيقى ، وتتنبأ له بالنبوغ فى هذا الفن مبكراً ، وترى أنه سيكون من عداد رجاله . ولكنها وقد تنبهت إلى استعداده للموسيقى ولحظت عظيم تعلقه بها ، ما كان يجول بخاطرها أن عبقرية طفلها هى أكبر عبقرية موسيقية وهبها الله لإنسان ، وما كانت تحلم أن هذا الطفل الصغير سيكون معجزة العالم فى هذا الفن ، وإماما لجميع أبطاله ، وشيخا لأعلام من تقدم منهم ومن تأخر .

* * *

كان القرن الثامن عشر العصر الذهبى للموسيقى الجيدة النموذجية وكانت البلاد الألمانية منقسمة إلى مقاطعات ، و إمارات عدة . وكان حكام هذه المقاطعات وأمراؤها ، ورؤساؤها الدينيون يفخرون بأن يكون فى بلاط كل منهم فرقة موسيقية تتقطع له .

وكان أمير مقاطعة « كولونيا » أحد هؤلاء الذين يعنون فى بلاطهم بالفرقة الموسيقية وانتقاء أفرادها من المبرزين فى هذا الفن . وقد جمع فى إمارته بين السلطتين : الدنيوية والدينية ، فصار أميرها ومطرانها وكان مقر سلطته مدينة « بون » .

كان الأمير المطران وقتئذ هو « مكسمليان فريدريك ، Maximilian Friedrich » وكان شيخا وقورا طيب القلب ، فى بداية العقد السابع من عمره .

وكان « لودفيج فان بيتهوفن » صاحب الصورة الزيتية التى سبق الحديث عنها بين حفيدة الطفل ووالدته ، فى خدمة هذا الأمير المطران ، رئيسا لفرقه الموسيقية . وهو من أصل هولندى ، نزح منها وهو فى الرابعة عشرة من عمره لخلاف وقع بينه و بين أسرته ، فكوّن نفسه وشق طريقه فى الحياة معتمداً على قوته وجهاده ، شأن كل رجل عصامى .

وكانت حياته فى سنواته الأخيرة حياة بؤس ونكد ، ذلك بأن زوجه « جوزيفا Josepha » أدمنت شراب الخمر إدمانا مزعجا ،

وانقطعت لتعاطيه انقطاعا عزلها عن العالم ، وسبب ذلك ما منيت به من موت أبنائها جميعا ، إلا ولدها « يوهان » فقد وارتهم التراب الواحد تلو الآخر مما أثر فيها تأثيرا سيئا خرج بها عن التقاليد وآداب الاجتماع .

وقد عاونها على إدمان الخمر ما اضطر إليه زوجها بسبب ضيق راتبه من مزاولة تجارة الخمور لكسب ما يعاونه على مطالب الحياة فكانت خير زبائنه فى تجارته .

ومات زوجها فى ليلة عيد الميلاد من ديسمبر سنة ١٧٧٣ وقد جاوز الستين من عمره فعاشت بعده عامين تغالب الزمن المرير ، لم تستطع بعدها احتمال هذه المعيشة وصروف الحياة فقدمت نفسها للخدمة فى أحد الأديرة حيث تختتم حياتها فى عزلة روحية .

ونشأ ابنها « يوهان » مغنيا ، وهو وإن ظل طوال حياته دون الطبقة الممتازة فى فنه ، فقد استطاع أن يلتحق بفرقة المطران براتب زهيد أيضاً لم يتجاوز خمسة عشر جنيها فى العام .

وفى سنة ١٧٦٧ تزوج يوهان بأرملة « لايم Laim » أحد وصفاء البلاط ، وكانت لم تتجاوز الحادية والعشرين من عمرها وكان أبوها طاهيا . وكانت رغم اعتلال صحتها مثال الزوجة الطيعة ، والأم الفاضلة والقدوة الحسنة فى إدارة شئون البيت وتدبير أموره .

كانت أولى ثمرات زواجها طفل مات على أثر ولادته. أما الطفل

الثانى فهو « لودفيج » الصغير بطل هذه القصة .

وعلى هذا الفرض تكون ولادته فى ١٦ من ديسمبر سنة ١٧٧٠ وتاريخ ميلاده على وجه التحقيق مجهول ، شأن تواريخ ميـــلاد عظماء الرجال فى تلك العصور السالفة ، إنما كانت حفلة تعميده فى الكنيسة لتسميته فى يوم ١٧ من ديسمبر سنة ١٧٧٠ والمعتقد أن ولادته كانت تسبق ذلك بيوم واحد .

ماريا مجداليا والدة « بيتهوفن »

ولد فى مدينة « بون » بالمنزل رقم ٥١٥ وهو منزل متواضع ، فى « حارة بون » ، يملكه أحد الخبازين ، وقد استأجرت أسرة « بيتهوفن » دوراً من الجانب الخلفى فيه لاتزيد غرفه على الثلاث ، وفى هذا المسكن بدأت وقائع هذه القصة ، وتشغل هذا المنزل فى الوقت الحاضر جمعية تدعى « بيت بيتهوفن » .

لئن ورث « يوهان فان بيتهوفن » من والده بعض الثروة ، وما أسرع ما بددها ، فقد ورث أيضاً عن أمه الادمان على الخمر فكان يقضى معظم أوقات فراغه فى الحانات ، فاذا لعبت الخمر برأسه عاد إلى البيت وكان له فيه مناظر مؤلمة . وإذ كانت زوجه امرأة تقية طيبة القلب ، مستكينة

لا سلطان لها عليه إطلاقا ، فقد كانت ترضخ لجميع أعماله وتقبل جميع تصرفاته حتى فاض بها الأسى فأسقمها قواها .

* * *

وسرعان ما بدأ الطفل « لودفيج » الصغير يجتهد فى أن يعزف وحده الأصوات التى كان والده يقود أصابعه فيها على مفاتيح البيانو مستقلا دون أية معاونة . وإذ كان قد بلغ الخامسة من عمره ، ولمس فيه أبوه هذا الاستعداد الموسيقى فقد بدأ يعطيه أول دروس فى البيانو . وبعد مدة وجيزة أعطاه أيضاً دروساً فى الكمان ، والكمان الأوسط « الفيولا » .

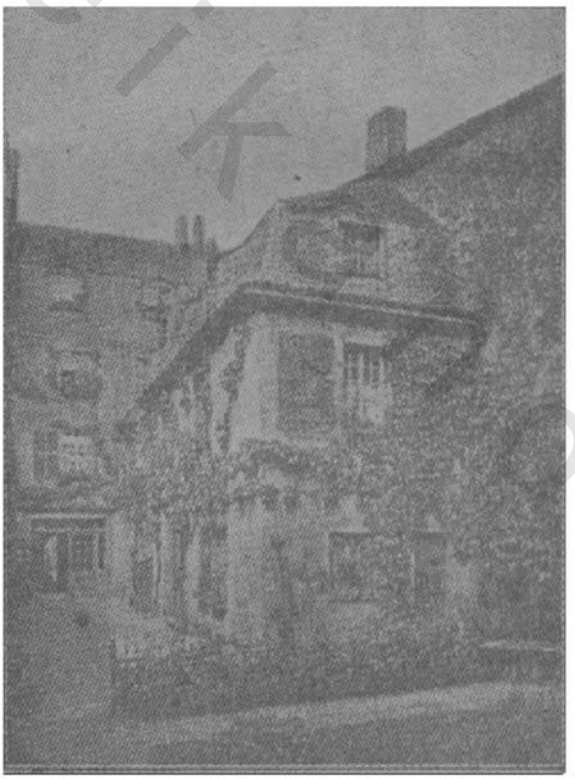

البيت الذى ولد فيه « بيتهوفن »

وقد شجعه على المضى فى هذا الدرس ما وجده فى ولده من حسن الاستعداد وتلألؤ الموهبة .

أخذت حياة « يوهان » تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، كما أخذت

حالته الخلقية تنحط شيئاً فشيئاً ، وزادت أفراد عائلته حيث رزق ولدين آخرين فى عامى ١٧٧٤ ، ١٧٧٦ الأول « كارل » والثانى « يوهان » وهو اسم أبيه .

و إذ ضاقت بالوالد سبل الرزق ، فقد اتجه بتفكيره إلى ولده « لودفيج » . و إذن فقد خاطب زوجه يقول :

— لا بد وأن أعمل من « لودفيج » عبقرية موسيقية ، أراد أم لم يرد .

ثم أطرق قليلا واستطرد قائلا :

— ثم أترك عملى ، وأجوب مع ولدى بلاد العالم ، حيث أعرضه فى مدائنها طفلا معجزاً . لقد فعل ذلك والد « موتسارت » مع طفليه « فولفجانج » و « مريانا » فرحل بهما فى صغرهما إلى « فينا » و « باريس » و « لندن » ، ولقد دهش الناس فى كل مكان لرؤيتهما فأمطروا الوالد ذهباً . و إننى لاأزال أذكر تماما حضورهم إلى هذه المدينة منذ اثنتى عشرة سنة حيث عزفوا فى مدينة « بون » وأصابوا فيها نجاحا باهرا .

— إنما الطفل المعجز ، يجب أن يولد . لا أن يصنع .

أبدت الزوجة هذه الملاحظة فى سكون واستكانة ، فأجابها الزوج :

— هذا حق ولكن طفلنا لديه بعض هذه الموهبة ، فإن نقصه شىء منها أسقيته إياه بالقوة ، وسأسوقه إلى العزف بالبيانو بالقسوة والعنف . إن أهم ما يهتم الناس له فى العزف و يأخذ بلبهم فيه هو مهارة

الأصابع ، وسرعة تنقلها ، وهذا يمكن اكتسابه بطول المران والمداومة عليه ، فإن توقف « لودفيج » عنه لسبب ما ، أرغمته عليه بالضرب ، وحملته على الاستمرار فيه بالقوة

هزت الزوجة كتفيها غير مقتنعة ، وقالت :

— ولكن هذه الطريقة لن يقرها أحد ، ولم نقرأ عن الطفل المعجز لمدينة « زالتسبورج » (تعنى موتسارت) أن والده أخذه بهذه الشدة فى صغره حتى كنت تتخذه مثلا أعلى ، وقدوة تحتذيها . حقاً لقد كان الوالد حازماً مع طفليه ولكنه لم يكن عنيفاً ولا قاسياً . بل إن طفولة « فولفجانج » الصغير لتعتبر مثال السعادة والهناءة

فقاطعها زوجها بقوله :

— الأطفال مختلفون فى طبائعهم ، و « لودفيج » طفل عنيد صلب الرأى ، لهذا فإنه إذا لم يرغب فى شىء فسارغمه عليه ، ولن يكون ذلك إلا بطريق القسوة والعنف .

طفولة معذبة

أنفذ الوالد عزيمته فى ولده فأخذه بالشدة والغلاظة ، ولقنه العزف بالبيانو تلقيناً هو القسوة فى أجلى مظاهرها ، فأصبح الولد لا يكاد يفارق تلك الآلة ، وفاض الألم بإحساس الطفل فغشّى على لذاذات نفسه من العزف حتى ما يذهب إلى البيانو إلا كارهاً ممتعضاً ، وكيف يلذ الشيء من يساق إليه قسراً ، وكيف يجيد الأداء من يدفع إليه بالسوط والعصى ؟ وهل كانت الموسيقى وليدة الأذى حتى يتذوقها من يستوفى نصيبه منه؟ الموسيقى وليدة العطف والحنان ، والرقة والرحمة لأنها غذاء الروح وراحة القلب ، فما أبعدها عن القسوة وأقربها إلى البشاشة واللين .

كان الطفل يتوسل بدموعه إلى أبيه أن يرحمه فلم تجده دموعه ، بل تعسف الوالد فحرم ابنه اللعب مع لداته وأقرانه وحال بينه وبين ما يلهو به الأطفال فى سنه . كل شيء فى نظر الوالد تافه إلا البيانو والمرانة عليه ، وما يلازم ذلك من أذى ويصحبه من قسوة ، حتى لقد فقد الطفل روح المرح ولم يعد يعرف للدعابة والفكاهة معنى ، وأصبح فى عزلة عن جميع الناس . وسارت حياته على وتيرة واحدة

معاملة لا حنان فيها ، وقسوة مجردة من الرحمة أضفت على الطفل

المعذب من الطباع ونا لازمه طوال حياته ، فقد شب شاردا محباً للعزلة كتوما صميتاً يعسر الوقوف على دخيلة نفسه

وزادت قسوة أبيه ، وغلظت شدته ، فزاد بؤس الولد وتضاعف ألمه ، والأم المسكينة حيرى بين الولد والوالد ، ما أجدت ضراعاتها ، ولا نفعت شفاعات الجيرة من الرفاق والأصدقاء

لكن الطفل رغم هذا الإرهاق المتنوع ، بلغ من المهارة فى العزف مبلغاً أذاع الدهش وأفشى الإعجاب ، وكان موضع العجب أن أصبح فى مقدور الطفل أن يرتجل على آلة البيانو من مخيلته ألحاناً و يبتكر فيها أنغاماً .

هنالك وجد الطفل فى موسيقاه لذاذة نفسه فاتخذ منها عزاء وسلوى وأصبح يشعر بميله إلى العزف ، فاذا جلس إلى البيانو تأثر بموسيقاه واندمج فيها حتى نسى نفسه ونسى غذاءه ، إلا أن تقبل والدته وتنتزعه من أحضان تلك الآلة .

قطع « بيتهوفن » السنة الثامنة من حياته فشاء أبوه أن ينتفع بمواهب الغلام فراح يذيع فى النـاس القصص عن معجزات ولده الموسيقية تمهيدا لإقامة الحفلة الأولى من حفلاته . وما كاد الوالد يبلغ مأربه من إقناع الناس حتى أقام له الحفلة الأولى فى مدينة « كولونيا » بعيدا عن مدينة « بون » موطنه وأذّن فى الناس أن ابنه لم يتجاوز السادسة من سنيه ، وأسماه « الطفل المعجز » تشبهاً بـ « موتسارت » فى طفولته . ولكن « لودفيج » رغم هذه المحاولات لم يصب نجاحاً كبيرا .

ولما بلغ « لودفيج » التاسعة من عمره ، كان فى استطاعته عزف ما وضعه « هايدن » من مقطوعات السوناته ، وأداء غيرها من مؤلفات أعلام الموسيقى ، فى إجادة تامة ، ومهارة فائقة .

وهنا فرغت جعبة الوالد ، ولم يعد فى طوقه الاستمرار فى التدريس ولده والمثابرة على تعليمه ، وحق عليه أن يبحث له عن معلم آخر أكثر دراية وأوسع علماً .

وقد وجد هذا المعـــــلم فى صديقه وزميله « فريدريك فايفار Friedrich Pfeiffer » وهو موسيقى متجول ، وقد حضر حديثاً إلى « بون » فى عام ١٧٧٩ ، للغناء فى أحد مسارحها ، وكان عازفا مجيداً بالبيانو .

ومن العجيب أن يكون المدرس الجديد مقيما فى نفس البيت الذى تقيم فيـه أسرة « بيتهوفن » فى « حارة بون » وأعجب منه ألا ينتظم فى إعطاء الدروس لتلميذه ، فما أكثر ما لجأ إلى إيقاظ الطفل فى جوف الليل ليلقنه دروساً فاته تلقينها نهاراً . ذلك بأنه كان يقضى ساعات الليل مع « يوهان » ونفر من أصدقائهما فى الحانات يحتسون الخمر ، فاذا أصابوا منها كفايتهم ، عادوا جميعاً إلى البيت بعد منتصف الليل وأحاطوا بسرير المسكين « لودفيج » يوقظونه من نومه فى غلاظة وخشونة ، فاذا ما نفض الطفل النعاس عن عينيه دفعوه إلى البيانو وأخذ معلمه فى تلقينه دروس العزف والتمرين حتى الصباح ،

ليعوض عليه ما فاته من الدروس .

وإذ كان أستاذه « فيفار » ممن يعزف بآلة الفلوت ، تلك الآلة التى كانت أحب الآلات فى القرن الثامن عشر ، فقد أقبل على تعليمها للطفل بمثل هذه الشدة ، وذلك العنف .

وهكذا خلت حياة الأسرة من كل مسرة ، وتجردت من كل نعيم . ولم يجد الطفل فى هذا الجو القاتم صدراً حنوناً يأوى إليه غير صدر أمه التى كانت ترعاه بحبها ، وتشمله بعطفها ، وتغمره بشفقتها .

* * *

استمر «لودفيج» يتلقى دروس العزف بالبيانو على أستاذه «فايفار» عاماً كاملا . وشاء الله أن تنتهى مهمة الفرقة المسرحية التى يعمل فيها ذلك المعلم وأن ترحل عن مدينة « بون » فرحل معها .

سمع الأمير المطران « مكسميليان فريدريك » الطفل « لودفيج » يعزف فأعجب به ، وتبين فيه استعداداً موسيقياً كبيراً حمله على أن يكلف « إيدن Eeden » عازف الأرغن فى بلاطه القيام بإعطاء الطفل دروساً فى البيانو ، وآلة الأرغن .

وإذ كان « إيدن » هذا رجلا مسناً كثير المشاغل فإن وقته لم يتسع لهذه الدروس ، ولذلك لم يترك فى تلميذه أثراً يذكر .

وبلغ الطفل الحادية عشرة من عمره ، فاعتقد الوالد أن ولده أصبح ناضجاً لإحياء الحفلات الموسيقية ، خارج مدينة « بون » بل وخارج البلاد الألمانية .

وواتته الظروف لتحقيق هذه الفكرة ، ذلك بأن سيدة كانت تقيم فى نفس البيت الذى تقيم فيه أسرة « بيتهوفن » التحقت كمربية فى بيت سيدة هولندية مثرية فى مدينة « روتردام » وهى الآن مع مخدومتها هذه فى مدينة « بون » زائرة لتمضية بضعة أسابيع ، فلما اعتزمتا العودة إلى « روتردام » وكان ذلك فى شتاء عام ١٧٨١ ، عرضتا على أسرة « بيتهوفن » أن تصحبهما إلى « هولندا » ليقوم « لودفيج » فيها بإحياء الحفلات الموسيقية التى يصبو إليها والده .

انشرح صدر « يوهان » لهذه الفرصة السانحة التى تحقق له أمنية طالما انتظرها ، ورجاء كثر ما تتطلع إليه ، وقد انتظر أن تمطر عليه هذه الرحلة وعلى ولده جبالا من الذهب . وإذ كانت قيود وظيفته تمنعه من مصاحبة طفله فى هذه الرحلة فقد اكتفى بأن ترحل أمه معه إلى البلاد الهولندية

مخرت السفينة عباب نهر الرين ، وكان الجو بارداً غاية فى البرودة ، قارساً يكاد يتجمد منه الماء ، ولقد خيل للطفل أن قدميه ستنفصلان عن جسمه فاضطرت والدته أن تحمله فى حجرها لتقيه بعض آلام تلك البرودة .

وبلغ الركب مدينة « روتردام » وعزف الطفل فى بيوت الطبقة الراقية فيها فنال إعجابهم بحسن توقيعه ومهارته ، ونال بعض الهدايا الثمينة ، ولكنها لم تكن بالقدر الذى كان يؤمله والده ، أو يرجوه

الولد ، حتى قال الطفل بعد عودته من « بون » فى حديثه مع زوجة الخباز « فيشر Fischer » صاحب البيت الذى تقيم فيه الأسرة عن وصف رحلته :

« إن الهولنديين قوم بخلاء ، ولن أزور تلك البلاد مرة أخرى إطلاقاً » .

إذن فقد خاب أمل الوالد « يوهان » فيما عقده من الرجاء أن يرى فى ولده « الطفل المعجز » ولم يتحقق له ما قصد إليه من استغلاله على هذا الزعم رغم المحاولات التى بذلها جاهداً ، والحيل التى استنبطها ، والمرغبات التى نشرها مما كان له أكبر الأثر فى كبح جماح أطماعه .

طرح الوالد جانباً — على الرغم منه — أملا طالما تعلق بأهدابه وهو أن يرى فى ولده صورة من « موتسارت الصغير » الذى كان قد اتخذه قدوة ومثالا يحتذى ، فعدل عن هذه الفكرة إطلاقا .

اتجه الوالد بابنه ناحية أخرى ، تلك هى ناحية إعداده لكسب عيشه ، فألزمه إجادة العزف بآلة الأرغن حتى يضمن له وظيفة ذات مرتب ثابت يساعده على تكاليف الحياة .

وتوفى أستاذه « إيدن » عام ١٨٨٢ فخلفه فى وظيفته للعزف بالأرغن فى البلاط الموسيقار « نيفا Neefe » وهو رجل مثقف ، عالم بأصول الموسيقى ، شاعر أديب فيلسوف ، فتولى أيضاً بناء على رغبة الأمير المطران تثقيف « لودفيج » الصغير تثقيفاً موسيقياً .

كان « نيفا » قصير القامة ، محدودب الظهر ، سريع الانفعال ، بذىء اللسان ، غير أن له من الأثر فى التطور الفنى لتلميذه « بيتهوفن » ما يسطر له بحق صفحات من الشرف والفخار .

الموسيقار نيفا أستاذ « بيتهوفن »

أخذ فى التدريس لتلميذه غاية ما يكون من الدقة ، وقد أظهر له عدم موافقته على الطريقة التى اتبعت فى تعليمه حتى الآن . ذلك بأنه كان يعتقد أن مهارة الأصابع شىء ثانوى فى العزف ، إذ ليست هى الركن المهم فيه ، إنما المهم الروح ، والقلب ، وتفهم الموسيقى والشعور بها ، وأداؤها فى رقة وصفاء . ولا ريب فى أن هذه وجهة نظر صحيحة .

لم يرق ذلك « لودفيج » بادى الرأى ، لأنه تعود كثرة الإطراء عليه من أساتذته ، والثناء على مهارته فى العزف ، وامتداح مقدرته فيه حتى أصبح يعتقد أنه أستاذ كبير ، وفنان منقطع النظير ، والآن يفاجئه أستاذه الجديد بأن الطريقة التى اتبعت معه عديمة الجدوى كثيرة الأخطاء ، وأن عليه إذا أراد أن يكون موسيقياً مجيداً ، أن

يتجه فى دراسته اتجاهاً آخر ، وأن يبذل جهداً جديداً ابتغاء الوصول إلى الغرض الذى يسعى للوصول إليه ، والذى لا يزال بعيد المنال .

خضع التلميذ لتعاليم أستاذه الذى قاده إلى أجود المؤلفات الموسيقية وبخاصة موسيقى « باخ Bach » العظيم ، وانكب على دراستها حتى تمكن منها وأصبح فى مقدوره أن يعزف مجموعة باخ المسماة « البيانو المعتدل » وهى تعد من أعقد المؤلفات الموسيقية فى صعوبة العزف ، لما اشتملت عليه من انتقالات لحنية ، وتصوير معجز فى النغمات .

ولم يقتصر أستاذه على تلقينه أصول العزف فحسب ، بل لقنه كذلك دروساً فى علم الانسجام الصوتى (الهارمونى) وعلمه صياغة الألحان . وقطع « لودفيج » فى هذه الناحية التعليمية مرحلة كبيرة استطاع بعدها أن يؤلف على أحد المارشات ألحاناً موسيقية مبتكرة وأنغاماً مبتدعة جميلة . وأراد أستاذه تشجيعه فأرسل بتلك القطعة إلى مدينة « مانهايم » لتطبع بها ، فكانت فاتحة مطبوعاته .

بل لقد كان فيما أظهره « لودفيج » من قوة الاستعداد وانصرافه إلى دراسته الموسيقية ما جعله موضع الرضاء من أستاذه ، ذلك الأستاذ الذى لم يكن من السهل إرضاؤه ، فقد كتب عن تلميذه فى إحدى المجلات الموسيقية التى كان يراسلها يقول :

« إن هذه العبقرية الناشئة لتستحق التشجيع وإذا استمر الطفل

فى هذا التقدم فسيكون منه ، ولا ريب ، موتسارت ثان » .

ولم يكن الأستاذ مغالياً فى تقدير عبقرية تلميذه ، بل لقد حققت الأيام صدق نبوءته ، و برهنت على بعد نظره .

* * *

بلغ « لودفيج » الثالثة عشرة من عمره فأخرجه والده من المدرسة مكتفياً بما حصله من تعليمه العام ، وكان لم يقطع منه غير مرحلته الأولى ، هى مرحلة التعليم الإلزامى . وحتى فى هذه المرحلة البسيطة لم يستطع تحصيل شىء كبير من علومها فكان فى المؤخرة من تلاميذها وذلك بسبب انشغاله بدراسته الموسيقية ، ومن أجل ذلك كان لا يحذق الكتابة ، كما كان يخطىء وضع علامات الترقيم فيها ، وكما ظل طوال حياته ضعيفاً فى علم الحساب مما سنلمسه فى حياته مستقبلا .

و إذ بلغ « لودفيج » الثالثة عشرة من عمره فقد صار ربع القامة يميل إلى القصر ، عريض المنكبين تعلوهما رقبة قصيرة ورأس ضخم ، وأنف مستدير . وكان وجهه أسمر البشرة حتى لقد كانوا يطلقون عليه فى البيت اسم « الأسبانى » . وقد ظهر فيه أثر الجدرى الذى كان قد أصيب به فى طفولته .

وفى نفس العام الذى ترك فيه « لودفيج » المدرسة ظهر له ثلاثة مؤلفات للبيانو من نوع « السوناتة » وقد أهداها للأمير المطران بناء على رغبة والده وأستاذه الذى شاء أن ينتهز هذه الفرصة ليظهر للأمير

المطران ما بلغه تلميذه على يديه من التقدم والنجاح ، حتى لقد صاغ له بنفسه عبارة الإهداء .

وفى شهر إبريل من السنة التالية مات « مكسميليان فريدريك » الأمير المطران عن خمس وسبعين سنة ، وخلفه فى منصبه « مكسميليان فرانس Maxmilian Franz » ، وهو أصغر أبناء « ماريا تريزيا Maria Theresia » قيصرة النمسا وشقيق جوزيف الثانى ، وكان وقتئذ لم يتجاوز الواحدة والعشرين من عمره .

كان هذا الأمير وديعاً ، غاية فى الوداعة ، رقيق العاطفة سامى الشعور ، اكتسب من والدته كل ما كان لها من نبيل الصفات حتى أنه ليشبهها فى ملامح وجهها . وكان شديد الكراهية لقيود التقاليد التى يتبعها البلاط ، وله فى ذلك نوادر وفكاهات يرويها التاريخ عند زيارته لشقيقته « ماري انطوانيت Marie Antoinette » ملكة فرنسا ، فقد أظهر شيئاً كثيراً من التهكم وعدم المبالاة بتقاليد « البروتوكول » التى كانت تراعى بدقة صارمة فى بلاط « فرساى » . وكان نصيراً للعلوم مشجعاً لأهلها وبخاصة الموسيقى .

ويعتبر هذا الأمير المطران صاحب اليد الطولى على « لودفيج » وإليه يرجع كثير من الفضل فيما صار إليه فنه مستقبلا .

ولقد كان أهم عضد له الشريف « كارل فون فالدشتاين Karl von Waldstein » الذى كان فى بلاط الأمير المطران فإنه لم ينقطع عن

تذكيره بالفنان الصغير . وقد أهدى اليه هو نفسه آلة بيانو ثمينة ، كما قدم له إعانات مالية عديدة ، ولكنه كان يفعل كل ذلك فى خفاء وتستر حتى لا يحسه « لودفيج » الذى كان يجب ألا يعلم أن هذا الشريف هو الذى يقدم له هذه الهدايا وتلك الإعانات ، لأنه لو علم ذلك لرفض قبولها إطلاقا ، فقد كان من هذه الناحية عزيز النفس شديد الحساسية ، لهذا فقد كان هذا الشريف يستخفى خلف اسم الأمير المطران فى كل ما يقدمه للفنان ، حتى يشعره بأن جميع هذه الهدايا مهداة من أميره ، وكان «لودفيج » لا يرى غضاضة فى قبولها من هذه الناحية، سيما وأنه يعزف بالبيانو فى البلاط دون أن يتقاضى أى مرتب عن ذلك .

وخلت فى البلاط وظيفة العازف الثانى بآلة الأرغن فتقدم اليها كثير من الفنانين كان « لودفيج » واحداً منهم ، وقد ساعده الشريف « فالدشتاين » لدى الأمير فى قبول طلبه و إلحاقه بهذه الوظيفة .

وكان « لودفيج » قد بلغ فى الفن منزلة رفيعة حقاً ، وقد أصبح فى تواليفه وألحانه مبتكراً مبدعاً ، لا يجارى ولا يلحق له غبار .

وكان على حداثة سنه يتحدى من يحيطون به من الفنانين الذين كانوا يعملون معه فى البلاط ، ومن ذلك تحديه للمغنى المشهور « هيللر Heller » وكان أكبر مغن فى بلاط الأمير ، فقد تندر معه بقوله إن فى استطاعته أن يصاحب غناءه بآلة البيانو وأن يأتى فى أثناء عزفه — مع مراعاته لأصول النغم — بما يخرجه عن النغم المرسوم فلا يجد لنفسه قراراً .

وإذ كان « هيللر » شديد الوثوق بنفسه والاعتداد بفنه فقد سخر بكلام « لودفيج » ولكنه قبل هذا العرض .

بدأ « هيللر » الغناء وأخذ « لودفيج » فى مصاحبته بالبيانو ، ثم صار يتنقل فى عزفه بألحان مبتكرة وأنغام جديدة ، ومع شدة محافظته على معالم اللحن ، وملازمة القواعد المرعية ، فقد ضل المغنى الطريق المرسوم للحن ، ولم يجد قراراً يهتدى إليه .

وبرغم قبول « هيللر » الدخول طوعاً فى هذا النوع من المسابقة ، فقد بلغ من استنكافه من خذلانه أن استشاط غضباً فأهان الفنان الصغير وتقدم فشكاه أيضاً إلى الأمير المطران مدعياً أنه يتعمد إهانته وتحقير فنه ، فاستدعاه الأمير وأمره بترك مثل هذه الفكاهات الجارحة ، وإن كان قد سر هو فى دخيلة نفسه من هذا الحادث .